المطبوعات

المذكرات

تأليف الأستاذ العلامة محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق . قوامها ٣ أجزاء عدد صفحاتها ٩٩٢ ، طبعت بمطبعة الترقي في دمشق ، الأول والثاني منها في سنة ١٣٦٧ = ١٩٤٨ ، والثالث في سنة ١٣٦٨ = ١٩٤٩

مؤلف هذه المذكرات آري عبقري كسبت به العربية والاسلام في هذا العصر خيرا كثيرا : أخرس لسان الشعوبية ، وحسم بعض المضللين ، وحمى حوزة الحق . ولد في دمشق حيث العروبة نابضة العرق والاسلام خفاق اللواء ، من أب كردي من مدينة السليمانية وأم شركسية من قفقاسيا ، فاستهوت عقله بلاغة العربيـــة ، واستولى على لبه جمـــال الاسلام ، حتى فنى في حبهما فناء العاشق في معشوقه ، وخدمهما بما تنوء به العصبـــة أولو القوة . تخب به راحلة العمر الآن نحو الثمانين ، وهو في دؤوبه على خدمتهمـــا وانتضح عنهما واعلاء شأنهما كما كان في عنفوان شبابه : تدر عروقه نشـــاطا ، ويتوثب ذهنه قوة ، ويزكو عمله الدائب خصبا ونماء .

وقد أنفق بواكير حياته في الدرس والتحصيل ومثافنة العلماء والأدباء ، وكان من أساتذته الشيخ طاهر الجزائري ، ومنزلته في بلاد الشام كمنزلة الشيخ محمد عبده في الديار المصرية ومنزلة استاذنا العلامة السيد محمود شكري الألوسي في العراق . وصرف كهولته وشيخوخته في كل عمل مفيد لدينه ولغته ووطنه ، فعانى الصحافة مدة طويلة ، والصحافة مختبر يعين على فهم الناس ومعرفة ألوان الحياة . وغامر في ميادين الســـياســـة فأدركه التوفيق والخيبة وذاق الحلو والمر ، وأوقعته جراءته في مآزق كثيرة نجا منهـــا بالهزائم الى مصر والحجاز ، ولكنها أسلمته الى ركوب المخاطر في الصحارى ، ومعاشرة أهل المدر والوبر ، وأكل جريش الحنطة وخبز الملة ، وشـــرب الماء الرنق والآسن ، والنوم بالعراء . وتقلب في مناصب كبيرة ، وكان أحـــد القلائل الذين أوصلهم فضلهم وبلاغتهم الى الوزارة ، وندر من وصل اليها بهـــاتين الوسيلتين في بلاد العرب كافة في هذا العصر . ثم انصرف عن السياسة انصرافا تاما ، وآثر التفرغ للعلم والتأليف وهمـــا في بلاده ، كما في كل بيئة ضيقة ، هين شأنهما ، محصوصة أجنحتهما ، فرفع بجهـــاده لهما من شأنهما ، وطار بهما كل مطار . وقد رحل أربع رحلات الى بلاد الغرب يبحث

في خزائن كتبها العظيمة عن الأصول التي تجلو حضارة العرب والاسلام في معارضها الفاتنة ، ويدرس أحوال الشعوب الغربية وطبائعها وشؤون العمران والادارة ونظام الدولة عندها ليكسب بذلك علما ينقله الى وطنه في طوره الجديد ، طور الانتقال والتجديد . وعمل على تنظيم دار الكتب بدمشق لتكون مرجعا ميسورا للباحثين ، وحث الناشئين على التعلم ، وشجعهم ، وامتد تشجيعه الى كل من توسم فيه نبوغا من الشاميين وغيرهم ، وافتتح بكتبه (« خطط الشام » و « الاسلام والحضارة العربية » و « أمراء البيان » و « القديم والحديث » و « أقوالنا وأفعالنا » و « المذكرات » وغيرها) عهدا جديدا في سورية للتأليف المبتكر الذي انقطعت الصلة بمثله منذ عصور . وأسس (المجمع العلمي العربي) وهو أعظم صرح للعلم قام في ديار العرب في أيامنا بمجهود رجل ، وقد لقي في سبيله الألاقي ، فلم تنه عن بنائه وتشييده وتبنيه ولفت أنظار الناس اليه ، رفع به اسم بلاده ، وخدم به العلم والتاريخ ولغة العرب ، وجعله مثابة كبار العلماء والأدباء من العرب والمستعربين من علماء المشرقيات ، وكان من نتاجه الطيب خمسة وعشرون مجلدا من مجلته التي حفلت بالروائع من آيات العلم والبحث والتحقيق ، وطائفة حسنة من الكتب النادرة أحياها بالنشر . وما برح يواصل جهاده في احياء التليد وابتكار الطريف في العلم والأدب بهمة لا يعروها الفتور ورغبة لا يدركها السأم ، وكذلك شأن المطبوعين على حب المعرفة واذاعة الخير .

***

وهذه (المذكرات) من آخر ما قدمه العلامة الجليل الى الأمة العربية من مؤلفاته ، وهي مرآة حياته ومستودع أفكاره وآرائه وسجل العصر الذي عاشه والرجال الذين عاشرهم وخالطهم في الشام ومصر وأوربة ، حفلت بصنوف من صور الحياة وخفايا الناس وألوان من التجارب والاختبارات والأحوال والنزعات والآراء والمثل والعبر في السياسة والاجتماع ، وفي الدين والثقافة ، وفي الاخلاق والعادات . عرض فيها للدول والجماعات كما عرض للأفراد ، وعنى بالشؤون الكبار والصغار ، ونظر في كل ذلك الى القيم والأقدار من حيث آثارها ، فلم يقومها بالجاه والمنصب والمال والشهرة ، بل قومها بالفضل والأدب والجهاد ونبل النفس ، فهي وأمثالها المعايير التي وزن بها الرجال والأعمال ، وأصدر عنها أحكامه ، فربما أعلى من شأن حوذي لاحسانه وطيبة نفسه ، وحط من قدر زعيم من زعماء المال أو الجاه أو المنصب لأن سيرته مؤذية أو لأنه لا خير عنده ولا نفع للأمة من حياته . وهكذا خاض في شؤون وأحوال شتى ، ودون ارتساماته وآراءه في صراحة وصدق ، فسمى الأشياء بأسمائها ، وجلا كثيرا من

الحقائق الخفية عوارى ليس عليها ثياب ولا من دونها ستر أو حجاب • وهـذا هو الذى يجدى تدوينه فى باب التجديد والاصلاح •

لست أزعم أن المؤلف قد سلم له كل ما دونه من ارتساماته وآرائه ، ولا سيما فى السياسة والرجال ، فانه هو نفسه يعترف فى آخر هذه المذكرات (٩٩١) بأنه « ربما وقعت له هنات كان الأجدر أن يسلم منها كتابه » ، ثم يذكر السبب فى وقوع هذه الهنات لـه فيقول : « وما كان السبب فيها الا بعض من أدلوا الينا بمعلومات وهموا فيها » • وليتـه أشار الى هذه الهنات ، وبين وجه الخطأ الذى لم يعصم منه ، لتتميز مروياته عن انطباعاته وآرائه ، وليعرف النـاس ـ ومن حقهم أن يعرفوا ـ هـذه الهنـات التى وقعت له ، و « من فيك أحلى » •

وقد مررت فى كتابه بأشياء لا أحسبها من هـذه الهنات التى عناها ، بل هى من باب آخر مما يتصل بالسياسة وبالرجال ، وعلى بعضها طابع العجلة والارتجـال ، وعلى بعضها أثر الحدة و « الانفعال » ، وما يدرينا اذا أخذنا فى سردها ، وهى ليست بالكثيرة ، أنه سيقول فى ردنا ما قاله فى تلك الهنـات (٩٩١) : « من ذا الذى عصم من الخطـأ ؟ والاجتهاد يختلف فى الحكم على من اشتركوا فى معاناة المصالح العامة اختلافه فى اتصافهم على ما يوجب الحق ، ويكفى المؤلف وهو يفيض فى مسائل متشعبة أن يحمل الى قرائه ما خبره بنفسه » ، فيسد بوجهنا الطريق الى مجاذبته أطراف الحوار !

★★★

وهو يقدم هذه (المذكرات) فيقول : « ليس الموضوع الذى أعالجه الا ن ذا مكانة كبرى اذا نظر اليه أنه مذكرات شخصية كتبها رجل ما كان فى مقام تشخص اليه أبصار العالم ، ولا هو من أمة كان له التقديم والتأخير فى مجرى سياستها • أنا أعرف ما كان لبـلادى الى عهد قريب كيان تعرف به فى العرف الدولى ، ولا هى من احكام الأمر بحيث يرهب بأسها ويسمع صوتها ، ولا هى من العلم والفن بحيث يمكن لها فى مجالس العلمـاء ، ولا هى رابحة الصفقة فى أسواق الحضارة ، فيتنافس العارفون فى اقتناء بدائعها وأعلاقها • وأعلم أن من الأشياء ما يكبر بكبر مصدره ، ومن الرجال من يعظم فى العيون بقـدر ما لأمته من عظمة » •

ونقول على سبيل تقرير الواقع ، وهى غير سبيل المؤلف فى هذا التواضـع : ان موضوع مذكراته انما يتمتع عنـدنا فى جملته بمكانة ملحوظة من ناحيتين : شخصيـة المؤلف الذى يتميز بطول الخبرة ، وصدق اللهجة ، وصراحة الأداء • وبحسبه أنه فى مقام تشخص اليه أبصار قومه ان لم يكن فى المقام الذى تشخص اليه أبصار العالم ، وهو

انما يكتب لقومه لا للعالم ، وللعالم بعد ـ اذا شاء ـ أن يستفيد مما كتب، ففي خبرته ثروة انسانية لا غنى عنها للمستفيد من أى أمة كان .

هذه ناحية ، والناحية الأخرى هى مزية الكتاب من حيث أنه حفلت صفحاته الـ ٩٩٢ بمسائل متشعبة مما اضطربت به الحياة فى مصر والشام وغيرهما من أقطار العرب ، وخبرها المؤلف بنفسه فى مدى ستين عاما ، أى منذ وعيه ومعاناته الصحافة والسياسة وهو شاب يافع ، وقد عاصر ظهور اليقظة وساير ما لابسها من أحداث وتطورات وانقلابات وكان له فى معظمها رأى ومقال ، وتلك مزية جليلة منظور اليها من حيث انها تستمتع بفضيلة الاختبار الشخصى ، وهى ليست بالميسورة لكل أحد فى معظم الأحوال . وليست هذه اليقظة التى يدون المؤلف ارتساماته عنها وآراءه فيها ، وقد جاءت بعد سبات طويل غط فيه العرب والمسلمون غطيطا أحقابا ، بهينة الشأن أو قليلة الخير أو ضعيفة الأثر فى الحياة العربية كما يظن الظان لأول وهلة ، حين يجدها لم تؤت بعد أكلها ، ومن عادة الناس أن يقترنوا أحكامهم بالنتائج لا المقدمات ، واذ كانت النتائج لم تظهر بعد ، وقد تلوح للأنظار بعيدا بلوغها ، فهم لا يحسون حسا قويا آثار هذا التطور فى كل ناحية من نواحى الحياة ، ولذلك هم لا يكبرون شيئا من أشيائه ، بل لعلهم لا يرون فى الغالب الا نقائصه ، وتظل أذهانهم عالقة بصور الماضى وأطيافه وغافلة عما يختلج دونهم من نوازع التقدم والحياة .

فان لم يكبر السواد مصدر هذه المذكرات ، كما يريد المؤلف أن يظن ، فالخواص الذين يقدرون قيم الأشياء حق قدرها جد عليمين بقيمة هذا المصدر ؛ واذا كان « من الرجال من يعظم فى العيون بقدر ما لأمته من عظمة » فالعلماء بالحقائق لا تغيب عن بالهم عظمة الأمة الاسلامية التى منها المؤلف فى ابان مجدها وفيما تركته من تراث يسعى المؤلف وتظراؤه فى احيائه . واذا قل مشاركونا فى الشعور بعظمة أمتنا فى التأريخ ، فحسبنا ـ نحن العرب ـ شعورنا بها ، ذلك الشعور البالغ الذى يحفزنا الى البناء كما بنى أوائلنا ، ويجعل كل بناء منا عظيم القدر فى عيوننا بقدر ما فى نفوسنا من شعور بعظمة أمتنا وايمان بمجدها .

***

كتب المؤلف كتبا كثيرة « كان الجد سداها ولحمتها ، وما جوز لنفسه الحياد عن قوانين المؤلفين ، ولا الصدود عن آيين المتقدمين والمتأخرين » و « أراد هنا ـ فى المذكرات ـ أن ينزع قيودا أثقلته وهو يراعيها ، وأن يبعد عن ذلك الطراز المقيد ، ويخرج الى الأسلوب المطلق » ، وقال :

« أحاول اليوم ، وقد رأيت الدنيا مهزلة ، وذقت حلوها ومرها ، وكرعت خمرها وخلها ، أن أهزل أحيانا ، وأسخر أحيانا ، وأضحك أحيانا ، وأبكى أحيانا ؛ لأن نفسى سئمت التزام الجد ، وتبرمت من الاضطراب فيه زمنا طويلا ، وطبيعتى تعصى على الشىء الرتيب » .

وكذلك قال زهير بن أبى سلمى من قبل :

سئمت تكاليف الحياة ، ومن يعش ثمانين حولا ـ لا أبا لك ـ يسأم !

وبدهى أن من يكتب بهذا الأسلوب المطلق عن أهل عصر يعيش بين ظهرانيهم ، ويعطى كل انسان كتابه بشماله ، انما يعرض نفسه لغضب الناس وسوء قالتهم فى حقه كالذى حدث له من بعض أصحابه وأحبائه بمصر حين نقد سلوكهم معه ثاروا عليه يناوشونه المطاعن وقوارص الكلام ، وليس بمثل هذه السهولة تنسخ المودات بين الأصدقاء وتنسى العهود بين العلماء .

ولكن المؤلف الذى أراد أن ينزع قيود الجد هنا ، قد غلبه الجد فى أحايين كثيرة ، وعقد العزم على ألا يحفل غضب انسان كائنا من كان مذ قال : « ربما يتألم بعض من عرضت لذكرهم بما يسخطهم ، فأنا لا أحفل غضبهم ، ولا أسعى الى رضاهم . ولعلى تعمدت أحيانا هتك سترهم ، لأنهم يتكون بأعمالهم ستر هذه الأمة لا يبالون » . وهو يعنى بهؤلاء غير من عنيتهم من رجال العلم والأدب ، وهم من أجل اصدقائه ، وما أحد منهم هتك ستر هذه الأمة بحمدالله . ثم يمضى فى حديثه بل فى ثورته فيقول : « واذا كنت لم أستخذ أمام من كان فى أيديهم النفع والضر ، فأنا لا أصانع من لا يرضيهم الا سكوتى عن مساويهم . دأبت على قتال الأرذياء ، والشباب غض ، والرغبة فى اطالة حبل الأجل عظيمة ، فحرى بى ألا أكف عنهم ، وأنا أطوى آخر مراحل العمر ، وأنفض اليد من بهرج الحياة . قصدت بما دونت التحذير من دجل الدجالين ، والتنبيه على أحابيل المبطلين ، والعمل على مكافحة الظالمين ، ليعرف أن كل جيل لا يخلو من دعاة يحاولهم الجهر بالحق مهما جشمهم ، ومن أفضل الطرق اليه ضرب السفهاء فى وجوههم بعيوبهم . جربت السكوت عمن لم يأتوا ببرهان واحد على حبهم الخير ، وما جنيت من الاغضاء الا البلاء . الجهر بالحق ، ومقاومة الظلم ، من أول مراتب النهوض ، والساكت عن الحق شيطان أخرس » .

هذا هو روح المذكرات ، أردت النص عليه من كلام المؤلف ، لأنه يحدد ما أراده من كتابتها تحديدا دقيقا فى ايجاز ووضوح . وهو روح قوى خالج معظم صفحاتها ، وكان فى بعضها ـ كما تجسه فى هذا التقديم من كلام المؤلف ـ كالسيل الهدار يدوى

صوته ويخرب أتيه ، ولكنه ينشأ مما يسيح من غرينه على الأرضين الصالحة نفع كبير .

والحق أن المجتمعات لا يمكن أن تحيا بالمق والمصانعة والرياء ، بل لعلها لا يقتلها شيء كما تقتلها هذه العيوب التي يتصف بها كثير ممن يتصدون لقيادة الرأي العام فيتملقونه ويصرفونه بهذه الأساليب ، وهم في الواقع لا يقودونه الى الرشاد كما يظنون ، بل يقودونه الى الضلال والهلاك وما يشعرون ، و « صديقك من صدقك لا من صدقك » .

لقد نفض لنا مؤلف المذكرات الحر بهذا الأسلوب الجريء خوالج نفسه وآلامها وآمالها ، يريد اصلاح المجتمع الذي عاش فيه وتطهيره من لوثاته ، و « كان يحرص فيها ألا يتكلم على نفسه ، وألا يقول قلت وفعلت ، فتعذر ذلك ؟ لأن أكثر ما فيها مما سمعته أذناه ، ورأته عيناه ، ووعته نفسه ، فمن الصعب ذكره مجردا من سامعيه ورائيه وواعيه . وهون عليه هذا الأسلوب أن رأى نفسه لم يأت بدعا ، وتابع طريقة من سبقوه من الغربيين في تدوين مثل هذه الارتسامات » .

***

وأنت في كتاب المؤلف هذا ، ان كنت جالسته ، كأنك تسمعه يحدثك ، فتجسم لك معانيه بما يرن في أذنك من صوته الأجش وتخيله من صورة أدائه للكلام أداء يتفرد به في صراحته وطلاوته وحلاوته .

فأسلوبه كتابة ، أسلوبه متحدثا ، وهو أسلوب ممتع يختلط بأجزاء النفس ويأخذ بمجامع القلب ؛ لأنه فيض القريحة ، ووحي الطبيعة ، وقل في الكتاب من يكتب لك كما يحاورك ويخاطبك ليؤثر فيك . وسدى كلامه ولحمته الفصاحة والسلاسة ، يندر أن تلفيه مترخصا في لفظة أو تعبير .

ومن أروع منشآته في هذه المذكرات ، فصل عنوانه « في عشر الثمانين » ، جود فيه غاية التجويد ، أنقل لك ذروا منه ، لأنه يلخص منازعه ويقف قارئه على بلاغته . قال :

« يا نفس ! هو ذا الحادي يهيب بك لاجتياز المرحلة الأخيرة دراك ، وخفي في خف من أثقالك لتلحق بمن تقدموك من الأهل والعشير ، فالوقت ضاق وأنت على أوفاز ، والمنزل منزل قمعة .

« يا نفس ! لا تنفضبي ولا تعتبي ، فقد عمرت طويلا ومتعت كثيرا ، وفتنت بجمال الوجود ، وجلال الطبيعة ، وهمت بصنع الخالق والمخلوق ، واستكثرت من الخلان والمعارف ، وسعدت اذ كنت أترب الى الفاؤل من التشاؤم ، والى الرجاء أدنى من القنوط ، والى السرور أكثر من النغم ، وعشت في سلطان الرضى طيبة الطعمة لا يد

لأحد عندك .

« أكثر ما آذاك في طويل أيامك أن كنت تشهدين قوى ضائعة ، وطريق الاصلاح مهيعا أمام أصحاب السلطان وهم لا يسلكونه ، فطالبت طغاة الاستبداد بالقيام بواجبهم ، فساءتهم جرأتك عليهم ، وتربصوا بك الدوائر . وقاتلت الشعوبيين أعداء العرب من الترك والصهيونيين والافرنج فشق عليهم سماع صوت الحق ، وما استطاعوا أن ينالوا منك على ما حشروا من أبالستهم ، وافتروا من افكهم ، وأنت عزلى لا سلاح لك الا الحق الذي أخذ من قلبك والا الغرام باستعادة عظمة الأمة والملة .

« يانفس ! الحق مر والصادع به معذب ، وصاحبه أبدا هدف لطعن الطاعنين ، ومن يحاول اصلاحا وتجديدا فهو عرضة للمصفقين والمصفرين ، ولا يكرثنك هـذا فالمتعنون ما اعتادوا أن يستجيبوا لأول صارخ يحاول زحزحتهم عن عقائدهم ، ومتى هش أرباب الأرواح الجامدة لمن يحاول ادخال روح جديد عليهم ؟ والناس ما خلقوا كلهم عقلاء وحلماء .

« وكيف تطمعين يانفس في رضى الظالم والجاهل ، وأنت ما حلا لك غير مكافحة المستبدين والسارقين ، ومنابذة المخرفين والمضللين ، وكنت معدوم بين عاملين : اما اقرارهم على فسادهم فتعدين من المنافقين ، أو الانكار عليهم وتحمل أذاهم فتقومين بواجب وتؤيدين دينا .

« عاشرت أجيالا ثلاثة كان في الأول معلموك ومؤدبوك ، وفي الثاني اخوانك ومعارفك ، وفي الثالث المستحسنون والمستهجنون لعمالك . وكان جيلك الأول خير أجيالك لما تخلله من آمال وأحلام ، وبشارات بما كنت ترتجين في دنياك من استفاضة الصيت وارادة النفع .

« جهدت كأن الموت لا يلاقيك وكنت كل يوم تتوقعينه ، فما قصر حسابك له من أجلك ولازاد فيه ، وتعرضت للهلاك غير مرة فنجوت لا بحسن حيلتك بل بقضاء وقدر .

« وأدركت بأخرة أن ليس في العالم أمس واليوم وغدا غير التكرار ، وأن البشر في بلاء ومحنة ، فاذا خرجت من هذه الفانية وحسناتك عدل سيئاتك ، أو شالت الحسنات قليلا في ميزانك ، فقد فزت فوزا عظيما ، وأنت اذا لم يحقق الزمن أغراضك كلها ، فلست أول من أعوزته القوة وخانه التوفيق ، ولا أول من يرد فدفن في التراب ، فلا تسألي خالقك بعد الذي جرى لك الا العفو والعافية » .

***

ولعلي ، بعد هذا ، لن أجد وصفا لهذه المذكرات خيرا مما وصف به الأستاذ ابن

العميد كتب أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، قل : انها « تعلم العقل أولا ، والأدب ثانيا » . وكذلك هذه المذكرات .

وذكرت متنزهات الدنيا بين يدي أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد ، فقيل : « هذه متنزهات العيون ، فأين أنتم من متنزهات القلوب ؟ » قالوا : « وما هي ؟ » قال : « كتب الجاحظ ، وأشعار المحدثين ، ونوادر أبي العيناء » . وأنا أضيف اليها رابعا : كتاب (المذكرات) ، فهو بدع في كتب هذا العصر ، وما يرجى من نفعه أمتع وأفضل وأغزر .

محمد بهجة الأثري

اليزيدية

تأليف الباحث الفاضل صديق الدملوجي ، قوامه « ٥١٨ » ص من القطع المتوسط ، وقد طبع بمساعدة مالية من المجمع العلمي العراقي ، في مطبعة الاتحاد بالموصل سنة ١٣٦٨ = ١٩٤٩

اليزيدية سفر حافل بذكر عقائد اليزيدية وطبقاتهم الروحية ورسومهم وعاداتهم وشعائرهم ومناسكهم وكتبهم الدينية ، ومراقد أئمتهم وتباتهم وعشائرهم ورؤسائهم وقراهم ، ورحلات المؤلف اليهم ونصه لجماعة منهم ، وتأريخهم القديم والحديث ، والانتقاد على من كتبوا في أحوالهم من شرقيين وغربيين وغير ذلك .

ولقد استوعب هذا الكتاب أحوال اليزيدية الدينية وأحوالهم الاجتماعية واستوفاها بأسلوب واضح مستتب لم نجد فيه عيبا غير الغلطات النحوية المبثوثة هنا وهناك[1] ، والظاهر أن المؤلف تساهل في اعتبار النحو في كتابه لبعض الأسباب ، ومن هنا سرى اللحن اليه ، نعسى أن يستدرك ذلك في الطبعة الثانية ، ليكون كتابه المرجع الأعظم في أحوال اليزيدية مع سلامة تعبير وحسن تصوير .

وقد زين الكتاب بصورة المؤلف وصور أخرى موضوعية ، زادته حسنا الى حسنه ، ووضوحا الى وضوحه ، وباقتراحات اقترحها المؤلف لاصلاح حال اليزيدية وضمان مستقبلهم الاجتماعي والثقافي فانه خالطهم وصادق « كرف » عدة رجال منهم

(١) ففي ص ١ « الجهات الأربعة » وفي ص ٢١ « وترجح أن الشيخ أبي بكر » وفي ص ٥٦ « لظهور هكذا دجالين » وفي ص ٦٣ « سوف لا تتم على يده » وفي ص ٨٠ « ان صخر الأول » وفي ص ٩١ « وهما هذين » وفي ص ١٠٠ « من أربعة وأربعين سنة » وفي ص ١٠٥ « ما لم يلاقيه أصحاب دعوة » ، أراد « الأربع وأبا بكر ودجالين كهؤلاء ولن تتم وصخرا الأول وهما هذان وأربع وأربعين سنة وما لم يلاقه » .

فاستحقوا منه بذل النصيحة لهم والعطف عليهم والدعوة الى حقهم ورفهم .

وكثرة محاسن هذا الكتاب الجليل لا تمنعنا الاشارة الى ضعف فيه من الوجهة التاريخية يعز علينا أن نذكره ولعل الاخلاص فى النقد يشفع لنا عند المؤلف الفاضل فى ذكرنا اياه . ومن ذلك قوله فى ص « ل » :

« الشيخ عدى بن مسافر الأموى الذى يتصل بالأب الرابع بمروان بن الحكم رابع الخلفاء الأمويين » .

وهذا محال لأن مروان المذكور من أهل القرن الأول للهجرة وعديا من أهل القرن السادس ، فأربعة القرون التى بين أزمانهما تفنى أكثر من عشرة أجداد فى أقل تقدير ، ولعل الصحيح ما ذكره ابن خلكان فى الوفيات ونقله المؤلف فى ص ٧٤ وهو أن مروان بن الحكم هو الجد الحادى عشر لعدى بن مسافر ، فهو قد كان حريا أن يشير الى هذه الاحالة .

وذكر فى حاشية ص ٤٤ الشيخ قضيب البان الموصلى أنه أبو عبدالله الحسين بن عيسى بن يحيى العلوى الحسنى وأنه توفى سنة « ٥٧٠ » ، وقد اختلف فى تسميته قضيب البان ، فالشيخ أبو الحسن على بن أبى بكر المعروف بالسائح الهروى قال فى مزارات الموصل : « وبها قبر الشيخ حسين المعروف بقضيب البان[1] » ولم يذكر أنه كان علويا ، وقال الشيخ أمين العمرى : « الشيخ حسين قضيب البان ابن عيسى بن يحيى ... وأمه أمة الخير زهرة بنت يحيى بن محمد بن موسى المبرقع بن محمد الجواد بن على الرضا وانما سمى قضيب البان لجميل صورته وحسن هيئته وهو أحد الأبدال ، له كرامات وقبره غربى الموصل خارج السور نحو رمية سهم ، توفى سنة ٥٧٠[2] » . وترجمه الشطنوفى ولم يذكر الا لقبه « قضيب البان » ولم يقل انه كان علويا ، قال : « سكن رضى الله عنه الموصل واستوطنها الى أن مات بها قريبا من سنة سبعين وخمسمائة وبها دفن[3] » .

وذكره ابن الفوطى بما فيه كفاية للباحث قال : « قضيب البان أبو على عمر بن محمد الكردى الموصلى الزاهد ، كان من العارفين المجذوبين الذين يتكلمون على الخواطر ، روى عنه الخطيب شهاب الدين عمر بن أبى القاسم

---

(١) كتاب الزيارات « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٥٩٧٥ ، الورقة ٩٤ » .

(٢) عنوان الشرف « نسخة الدار المذكورة ، ٥١٣٨ ، الورقة ٩٠ » .

(٣) بهجة الأسرار ومعدن الأنوار فى بعض مناقب الشيخ عبدالقادر الجيلانى ، ص ١٩٦ » .

ابن الفرج بالموصل سنة ستمائة ، قال : كنت ذات يوم بالموصل جالسا في سوق الصوافين إذ أقبل قضيب البان ، وكان ذا شكل عجيب : طوالا من الرجال على هيئة الأكراد ، مكشوف الرأس متقزع[1] الشعر ، لا يستقيم على جهة ، عريض اللحية قليلا ، مطرق (كذا) كأنه أعمى وليس بأعمى ، يمشي في الأسواق ولا يتكلم ، حاف عليه جبة صوف ، مشدود الأذيل والأكمام . فلما قرب مني — وكان هناك شخص قد وقف ووعظ وخوف بالله تعالى ثم انصرف — قال لي ، وهو تجاهي : كم من مذكر بالله ناس لله ، وكم من مخوف بالله ينسلخ من آيات الله ، وذكر كلمات أنسيتها[2] .

فهذا هو القول الذي نراه صحيحا في اسمه وجيله وزمنه ، ونزيد زمنه بما ذكره أبو المظفر سبط ابن الجوزي في ترجمته عماد الدين محمد بن يونس بن منعة الفقيه الشافعي الموصلي المتوفى سنة ٦٠٨ ، قال : « والتقاه قضيب البان المولد يوما فقال له العماد : سلام عليك يا أخي كيف أنت ؟ فقال : أما أنا فبخير وقد بلغني عنك أنك تغسل أعضاءك كل يوم ، تشطف اللقمة التي تأكلها[3] ؟ فقوله : « يا أخي » يدل على تقارب العمرين .

وذكر المؤلف الفاضل في ص ٧٣ « الأسرة العدوية ومكانتهم في التاريخ » وبدأ بذكر الشيخ عدي بن مسافر الأموي فأحسن الثناء عليه وبجله وعظمه ثم بحث عن السبب الذي حمله على الهجرة من الشام الى جبال الأكراد ، قال : « يقال انه بعد سقوط الدولة الأموية هاجر البعض من رجال البيت الأموي مع مواليهم الأكراد الى هذه الجبال وانزووا فيها خوفا من العباسيين الذين كانوا يتعقبونهم ويكثرون القتل فيهم ، وقد عرف عدي هذه الجبال وجاءها واختار السكنى فيها . والحقيقة أن الأمويين لم يسبق لهم هجرة الى هذه الجبال لا قبل عدي ولا بعده ، ولهذا الكلام موضع آخر غير هذا » .

قلنا : بل التاريخ يشير الى قول من قال بانتقال بعض الأمويين الى تلك البلاد ، قال المسعودي في أخبار مروان الحمار آخر الخلفاء الأمويين « وقد كان سليمان بن هشام ابن عبدالملك اتصل بالخوارج بالجزيرة خوفا من مروان[4] » . ومن المعلوم أن أمهات مدن الجزيرة الموصل وميافارقين وآمد وماردين والخابور وسنجار ونصيبين ورأس عين

---

(١) أي ليس بأفرع وانما حص شعر رأسه وبقيت منه بقايا في نواحيه .

(٢) تلخيص مجمع الآداب على معجم الأسماء في معجم الالقاب ، ج ٤ ص ٣٠٦ ، من نسختي .

(٣) مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٣٦٥ ، قال المؤرخ في العماد المذكور ، وكان به وسواس في الطهارة يبعث كل يوم غلامه الى الجسر فيقف في وسط الشط يملأ الأباريق فيتوضأ بها ، قال : فبلغهم قول قضيب البان فرجع عن ذلك .

(٤) مروج الذهب طبعة المطبعة البهية ج ٢ ص ٢٠٣ .

والرقة وحران والرها ، فاتصال سليمان بالخوارج في مواضعهم لا يكون الا بعد القصد اليهم .

وعزا المؤلف هجرة الشيخ عدي الى حبه السياحة كعادة المتصوفين السياح ولم يلتفت الى أن الدولة الفاطمية في زمن انتقال عدي من الشام كانت تحكم في كثير من تلك البلاد ، ومذهبها وعقيدتها معلومان ، وهي ذات الكلمة والسلطان ، فلعل الشيخ عديا هرب من حكم تلك الدولة التي كانت لا تحرج من ارتكاب ما يؤذي العباسيين ، فضلا عن الأمويين ، والهجرة سبيل معروف الى النجاة من الاضطهاد قديما وحديثا .

وقال في ص ٧٧ : « ظهر لنا مما تقدم أن الشيخ عديا هو الرجل الفذ الذي ظهر في عصره وفاق أقرانه في زهده وورعه الذي جمع اليه وفور العرفان والعلم » . والتحقيق أنه لم يكن فذا فقد أجمع المؤرخون على أن الشيخ عبدالقادر الجيلي كان أعظم منه وأجل وأرسخ قدما في المجاهدة والزهد ، وعدوا عديا ممن أقر لعبدالقادر بالقطبانية أي القطبية[1] .

وتكلم المؤلف في ص ٨٤ على شمس الدين تاج العارفين أبي محمد الحسن بن أبي المفاخر عدي الأصغر ، قال : « وقد اخلى ست سنوات صنف فيها كتاب « الجلوة لأهل الخلوة » أودع فيها عقيدته التي خالف فيها مبادىء الاسلام وقد فقد الكتاب ولم يعلم شيء عنه . ونرجح أنه اتصل بالشيخ ابن عربي ... ومنه أو من غيره انتقلت اليه عقيدة وحدة الوجود فأدت الى القول بالرجعة والحلول وبنى عليه مذهبه الذي عرف به ... ان قيام الشيخ حسن بهذه الدعوى مما أيده المؤرخون الذين تكلموا عنه حتى نزه أحدهم بالتأله ... » .

وحقيقة الأمر أن الباحث الفاضل لم يفهم معنى كلمة « التأله » التي هي من صفات المدح للزهاد العباد ، تعدها قدحا ونبزا . فالتأله في العربية الشديد التعبد ، قال الجوهري في الصحاح : « والتأله : التعبد والتنسك » وقال الزمخشري في أساس البلاغة : « فلان يتأله : يتعبد . وهو عابد متأله » . وفي المصباح المنير « أنه يأتي من باب تعب الاهة بمعنى عبد عبادة وتأله تعبد » . ومن الحق أن لكل كلمة قيمتين : قيمة معجمية وقيمة استعمالية وعليها المعول اذا تطرق الشك على معناها ، ولكن « المتأله وأصله التأله » واضح معناه كما رأيت ، ومع ذلك نود أن نذكر القيمة الاستعمالية للتأله ، ففي الشعر والشعراء قول ابن قتيبة « وكان زهير يتأله ويتعفف في شعره » ، وفي مروج الذهب[2] « وذلك عند تنسك

(١) بهجة الأسرار « ص ١٧ » . (٢) ج ٢ ص ٩٥ من الطبعة المذكورة .

ابن الزبير وتألهه وإظهاره الدعوة لنفسه » . وقال رؤبة :

لله در الغانيـــات المـــده   سبحن واسترجعن من تألهـي

وجاء في رسائل الرازي[١] « ومن قبله سقراط المتخلي المتأله[٢] » . وهـذا الوصف مستفيض في كتب التاريخ والتراجم الا أن الناقد ملزم التمثيل والاستشهاد . وبذلك أخذنا .

وبعد أن ظهر أن الشيخ تاج العارفين « حسنا » كان متألها أي متعبـدا متنسكا ، بشهادة المؤلف الفاضل كتابة نسأله كيف صدق بما نسب اليه ؟ فابن شاكر الكتبي الذي اعتمد عليـه قال فيه : « رحمه الله ورضي عنه[٣] » . وقال شمس الذهبي : « سنة أربع وأربعين وستمائة[٤] الحسن بن عدي بن أبي البركات صخر بن مسافر ابن اسماعيل الملقب بتاج العارفين شمس الدين أبو محمد ، وجده أبو البركات هو أخو الشيخ عدي ، وكان الشيخ حسن هـذا من رجال العالم رأيا ودهاءا وله فضل وأدب وشعر جيد وتصانيف في التصوف وله أتباع ومريدون يالغون فيه ، وبينه وبين الشيخ عدي من الفرق كما بين القدم والفرق ، وبلغ من تعظيم العدوية له ما حدثني به أبو محمد الحسن بن أحمد الأربلي قال : قدم واعظ على الشيخ حسن هذا ، فوعظ حتى رق حسن وبكى وغشي عليه ، فوثب بعض الأكراد على الواعظ فذبحه . ثم أفاق الشيخ حسن فرأى الواعظ مذبوحا . فقال : ما هذا ؟ فقالوا : والا ايش هذا من الكلام يبكي سيدنا الشيخ[٥] ! فسكت الشيخ حفظا لدسته وحرمته . وكان الملك بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل قد خاف منه فعمل عليه حتى قبضه ثم خنقه بوتر بقلعة الموصل خوفا من الاكراد لأنهم كانوا يشنون الغارات على بلاده نخشى[٥] لا يأمرهم بأدنى اشارة فيخربون بلاد الموصل لشدة طاعتهم له . وفي الأكراد طوائف يعتقدون الى الآن أن الشيخ حسنا لابد أن يرجع ، وقد تجمعت عندهم زكوات ونذور ، ينتظرون خروجه وما يعتقدون أنه قتل . ورأيت له كتابا فيه عشرة أبواب أحد الأبواب اثبات رؤية الله عيانا وأن غير واحد من الأولياء رأى الله تعالى عيانا ، واستدل على ذلك ـ نعوذ بالله من الخذلان والضلال ـ .

(١) طبع المستشرق بول كراوس « ص ٣١ » .

(٢) معجمنا اللغوي وقد جمعناه في ربع قرن ولا يزال في التسويد والزيادة .

(٣) فوات الوفيات « ج ٢ ص ١٢٣ » .

(٤) يعني « مات » و « توفي » وهو من اصطلاح المؤرخين كقولهم « وفيها » أي في هذه السنة من دون ذكر « توفي » ، ومن الناس من لا يعلم هذا ويظنه نقصانا في التواريخ ، فليعلمه .

(٥) كلامهم بالعامية في ذلك الزمان .

ومن تصانيف الشيخ حسن « محك الايمان » وكتاب « الجلوة لأهل الخلوة » وكتاب « هداية الأصحاب » وله ديوان شعر فيه أشياء من الاتحاد ، فمن ذلك :

وقد عصيت اللواحي في محبتنا وقلت : كفوا، فهتك الستر أليق بي[1]

وأشد ما رأينا من الطعن عليه ، وهو من خصومه في المذهب والحكم والسياسة ، ما نقله الخزرجي في تاريخه في وفيات سنة « ٦٤٤ » قال : « ومات الشيخ الكبير تاج العارفين شمس الدين أبو محمد الحسن بن عدى بن أبي البركات صخر بن مسافر العدوى وكان من رجال العالم عقلا ورأيا ودهاءا وله نظم وأدب وتصانيف في التصوف منها كتاب « محك الايمان » وكتاب « الجلوة لأرباب الخلوة » وكتاب « هداية الأصحاب » وفيه انحراف ظاهر لكل مسلم عن الخالق (كذا ولعلها الحق) وعظائم لا تحتمل ، وله كتاب آخر فيه مصائب لا يمكن النطق بها ، وكان صاحب الموصل يخاف منه فتحيل عليه حتى ظفر به وحبسه ثم خنقه بوتر هذه السنة المذكورة وله ثلاث وخمسون سنة[2] » .

وفذلكة القول أن سيرة هذا الشيخ ما زالت غامضة قليلة المراجع التأريخية ولم نر من الآراء فيها الا رأى أعدائه والمخالفين له في العقيدة ، وربما كان تأريخه هذا منقولا عن رجل أو رجلين وذلك لا يكفي في استبانة حالة ، ولهذا نقف موقف الشاكين من قول المؤلف « وبعد أن وجد نفسه بهذه المنزلة وفي جانبه جماعات كبيرة من المريدين ، يدينون به رأى أن ينفذ منوياته التي طالما تختلج في صدره وهي ايجاد انقلاب واسع في الدين والعقيدة والسياسة وفي كل شيء ، أليست الغاية من وضعه هذا الدين (كذا) هي تهيئة الأسباب التي تمكن من ايجاد هذا الانقلاب ؟ » فأكثر ما يصح أن يقال فيه انه كان غاليا من الغلاة .

ومما استدركناه على المؤلف الفاضل في ترجمة الشيخ حسن بن عدى الأصغر المذكور أبيات ذكرها بدرالدين بن حبيب في ترجمة حفيده الشيخ زين الدين أبي المحاسن يوسف بن محمد بن الحسن بن عدى المتوفى سنة « ٦٩٧ » قال :

« وفيها توفي الشيخ زين الدين أبو المحاسن يوسف بن محمد بن الحسن بن الشيخ عدي ، رجل مطاع ، حسن الخلق والطباع ، مقابل بالتبجيل والاكرام ، محترم عند

(١) ابن قاضي شهبة في « أسماء الأعيان من تاريخ الذهبي » ، نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٢٠٧٦ الورقة ١٨٣ .

(٢) أصول التأريخ والأدب « مج ٢٢ ٨ ص ١٦٥ » نقلا من تاريخ ابي الحسن الخزرجي وهو ينقل من تأريخ ابن الساعي الشافعي .

أكابر مصر والشام ، جواد حليم ، سخى النفس كريم ، لا يبقى على درهم ولا دينار ، مع وجود الاقطاع والفتوح والادرار ، له زاوية مفوفة الأبراد ، يفد عليها كثير من مريديه الأكراد ، يمد بها السماط للوارد والمقيم ، ويهب على اللائذين برحابها للقبول نسيم وأى نسيم . وكانت وفاته بمصر عن ... سنة ، تغمده الله برحمته . ومن نظم جده الشيخ حسن بن عدى المشار اليه :

بداية نشوتى من خمر فيكا ... فكيف على الغرام ألام فيكا ؟
وكان القلب لى وحدى فأضحى ... هواك اليوم لى فيه شريكا
مليك الحسن قد جئناك نشكو ... تعرض ناظريك لناظريكا
ملكت قلوبنا فغدت رعايا ... ولا نرضى سواك لها مليكا

وله :

تجاوز حسن أحمد كل حد ... فقولى فيه منقطع الجواب
لقد غلطوا بما قد لقبوه ... وهل بدر يلقب بالشهاب[1] ؟

ولقد نقل المؤلف فى أخبار بدرالدين لؤلؤ الأتابكى صاحب الموصل شيئا من كلامنا فيه ولم ينسبه الينا ، حتى الذى نقله بالنص . قلنا : « على أن بدرالدين لم يكن محمود السيرة ولا سالما من الجريرة[2] » . وقال هو : « ويروى أنه لم يكن محمود السيرة ولا سالما من الجريرة » ص ٨٥ ـ . ومن البديهى أن هذا القول ليس برواية وانما هو اجتهاد فى الرواية ، فالعهدة فيه على قائله ، ومعنى « يروى أنه لم يكن ... » أن راويا من الرواة أثر بالاسناد أن بدرالدين لم يكن كذلك ، وهذا لا يوافق المقام .

ونقل فى ص ٦٨ ما ذكره مؤلف الكتاب الذى ظننا « الحوادث الجامعة » ص ٤٧١ من محاربة بدرالدين لؤلؤ المذكور للبيت العدوى وطائفتهم سنة ٦٥٢ ونبشه قبر الشيخ عدى واحراقه عظامه ، وفيه بعض الغموض والربك ـ أعنى المذكور فى الحوادث ـ والصحيح الواضح ما ذكره الخزرجى فى حوادث تلك السنة قال :

« وكان زعيم الموصل بدرالدين لؤلؤ قد أخذ من أولاد الشيخ عدى الكردى (كذا) ألوفا من العين على وجه الاكراه ، فعظم ذلك عليهم ، فأطلقوا ألسنتهم فى سبه ، فبلغه ذلك فأمر بنبش الشيخ عدى من قبره واحراق عظامه ، فأنكى ذلك فى قلوب الأكراد واجتمع بعضهم الى بعض واتفقوا على نهب أعمال الموصل فنهبوها ، فطلب

---

(١) درة الأسلاك فى دولة الأتراك (نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ١٧١٩ عربيات ، الورقة ٩٩) .

(٢) العراق بين احتلالين « ج ٢ » فى الملحق الثانى ـ ص ١٤ ـ .

بدرالدين أكراد الجبل فأتاه منهم ألف فارس فضم اليهم عسكرا وبعثهم لمحاربة الأكراد وأصحاب عدى فحاربوهم وكسروهم وغنموا أموالهم وأسروا منهم خلقا كثيرا وحملوهم الى الموصل ، فصلب بدرالدين تجاه القلعة منهم مائة وذبح مائة ، وأخذ شخصا معروفا وجعله عدة قطع . وكان ذلك فى شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة[1] » .

ومنه يظهر أن نبش قبر الشيخ عدى واحراق عظامه سبقا حرب بدرالدين لهم ويظهر أيضا أنهم نهبوا أعمال الموصل قبل أن يسير الجيش اليهم ، وفى ذلك اتساق للحوادث التى جرت هناك .

ونقل فى ص ١٠٣ ترجمة عزالدين أميران الكردى ابن بنت الشيخ عدى من كتاب الدرر الكامنة[2] وفيها « قدم الموصل فولى بها الامرة » . والأصل « قدم دمشق » وهو الصحيح .

وتكلم المؤلف فى ص١٦١ وما يليها على وجه التسمية باليزيدية وتعيين الزمن الذى سموا به ، فقال : « وأول من وجدناه ذكرهم بهذا الاسم أبو فراس عبدالله بن شبل ابن أبى فراس بن جميل فانه ألف كتابا عام ٧٢٥ للهجرة (١٣٢٤م) سماه « فى الرد على الرافضة واليزيدية » ، ولم يذكر ما احتوى عليه هذا الكتاب من الأبواب ، وقال : « يجوز أن هذا الاسم أطلق عليهم قبل هذا » . قلنا : ان الاعتماد على اسم الكتاب المذكور فى معرفة تاريخ التسمية ليس بكاف فى مثل هذا الأمر ، لأن الزيدية ، فى أكثر كتب الفرق فرع من الرافضة ، فلعل اسم الكتاب الصحيح « فى الرد على الرافضة الزيدية » أو « الرافضة والزيدية » ، ولكن الناسخ غلط فى النسخ . اذن لا تثبت التسمية المدعاة حتى يؤيد ما فى الكتاب عنوانه . وعطف الزيدية على الرافضة من بابة قوله تعالى : « فاكهة ورمان » .

وانتقل المؤلف الفاضل الى ما نقله مؤلف « تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم » فى تسمية « اليزيدية » من كتاب الأنساب للسمعانى المتوفى سنة « ٥٦٢ » فأنكر اتصال أولئك اليزيدية بهؤلاء فى الدين والأنساب ، ونحن لا نرى موضعا لانكاره ، فقد تضافرت الأخبار على أن كثيرا منهم أصلهم أكراد ، وقول المؤلف « يرجعون الى أصل مجوسى » لاينفى كرديتهم ؛ لأن المجوسية دين لاجيل ، فالرد بين الضعف ظاهره ، الا أنه يستطيع أن يقول ان التسمية باليزيدية لم تعم فى ذلك العصر حتى ان المقريزى حين ذكر خبر احراق قبر الشيخ عدى سنة « ٨١٧ » من سلوكه سماهم أولا « العدوية » ثم

(١) أصول التأريخ والأدب « مج ٢٢ ب ص ١٦ » نقلا من تاريخ أبى الحسن الخزرجى وهو ينقل من تأريخ ابن الساعى .
(٢) ج ١ ص ٤١٤ .

قال : « وصاروا فى هذا الوقت يعرفون بين الأكراد بالصحبتية » كما فى الجزء المحفوظ بباريس ذى الرقم ١٧٢٧ فى الورقة ٢٨٥ .

وقال فى ص ٤٢٢ فى ذكر الشيخ ابن تيمية « يعده مؤلفو الاسلام مجدد القرن السادس الهجرى » والصواب « القرن الثامن » لأنه أدرك هذا القرن .

وأشار فى ص ٤٣٣ الى فتوى الشيخ عبدالله الربتكى المدرس « ١٠٦٠-١١٥٩هـ » فى اليزيدية وعده اياهم مرتدين ، ثم قال : « ونشك أيضا فى نسبة هذه الفتوى اليه ونرجح أن يكون واضعها غيره وعرفت باسمه » . قلنا : ان كان الشك فى الأمور والتأريخ بمثل هذه السهولة وهذا اليسر ، فاننا نستطيع أن نجحد أمورا كثيرة ، والتأريخ لاينقض بمثل هذا الأسلوب التحكمى ، قال ياسين بن خيرالله فى حوادث سنة ١١٥٩هـ :

« وفيها توفى الامام العالم العلامة ملا عبدالله المدرس ابن أحمد بن حسن الكردى الموصلى ، له تآليف منها « مختصر الزواجر » و « شرح المنهاج » و « رسالة فى جواز استرقاق الرفضة وعبدة الشيطان » وله تعليقات فى جميع أنواع العلوم وله أرجوزة فى نظم الأشكال . وكان رفيع الجاه عند الملوك مجاب الدعوة ، وكان اذا حضر عند الملوك لقضاء مصالح الناس يكون صائما لا يأكل أو يشرب عندهم ، وله كرامات ظاهرة ولأهل الموصل فيه اعتقاد ، وقبره فى جامع نبى الله جرجيس رضى الله عنه ، وذكر لى ولده الفاضل ملا ياسين أن لهم نسبة الى العباس رضى الله عنه وكان عندهم نسب فاحترقت قرية ربنك واحترق النسب فى أيام جدهم المترجم[1] » .

وذكر فى ص ٤٥٣ الحرب التى أنشبها على الأكراد العدوية الصحبتية اليزيدية وشبها جلال الدين بن عزالدين يوسف الحلوائى الشافعى بعد أن حرض أمراء الجزيرة عليهم ، وقال : « ثم من منا يعلم ما كان هذا الفقيه يحمله من عقيدة زائغة وقد خدع الناس بها ؟ » . وقد كان قال فى ص ٧٦ فى ترجمة الشيخ عدى الكبير : « أليس مما يدل على بؤسه تصدى بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل أولا والمجتهد الحلوانى ثانيا لحفر قبره واخراج عظامه واحراقها ؟ » ، وقال فى ص ٧٧ « لاحتراصات (كذا) سياسية ومذهبية كانت تجيش فى صدر المملوك الأتابكى والمجتهد الايرانى ولم يخجلا أن يعللا عملهما هذا بالجهاد فى سبيل الدين ، وهل ان الدين تصدع وهدمت أركانه لسبب ما أصاب هذه الطائفة من الضلال ؟ ... » .

---

(١) أصول التاريخ والأدب « مج ١٠ ص ١٣٠ » نقلا من الدر المكنون لياسين العمرى . وترجمته فى كتاب « مشاهير الكرد وكردستان » « ج ٢ ص ٤١ » ، ليست بحاوية لاسم تلك الرسالة ولا وافية .

قلنا : جرت عادة العلماء من أمثال جلال (جمال) الدين محمد أن يفعلوا مثل هذا ، قال تقي الدين المقريزي في حوادث سنة ٧٠٤هـ : « وفيها توجه شيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن تيمية في ذي الحجة ومعه الأمير قرا قوش المنصوري الى أهل جبل كسروان يدعوهم الي الطاعة فلم يجيبوا فجمعت العساكر لقتالهم[١] » ، وقال الذهبي في حوادث سنة « ٧٠٥ » : « فيها نازل نائب دمشق بعساكره جبل الجرد ، وقهر الكسروانيين وفرقهم وأذلهم ، وهم روافض جهلة ، فتكوا بالجيش وقت الهزيمة وعملوا أجل قبيح (كذا)[٢] » .

والحلوائي المذكور لم يكن يتهم بالزيغ في عقيدته ولا بخديعة الناس ، وانما كان من أجلاء الشافعية ، قال شيخ الاسلام ابن حجر العسقلاني في ترجمة والده عزالدين يوسف بن الحسن بن محمود السرائي الأصل التبريزي الحلوائي ـ بفتح أوله وسكون اللام مهموز ـ « الفقيه الشافعي ، ولد سنة ثلاثين وسبعمائة ... واجتمع ببغداد بالشيخ شمس الدين الكرماني ... فلما دخل الدعادعة وهم أتباع طقتمش خان تبريز وضربوها تحول الشيخ عزالدين الى ماردين ... وشرح الأربعين للنواوي ... وكان قد حج ثم زار المدينة فجاور بها سنة ... وكانت وفاته في سنة أربع وثمانمائة بالجزيرة فانه رجع اليها لما كثر الظلم في تبريز فقطنها الى أن مات وخلف ولدين بدرالدين محمدا وجمال الدين محمدا ، وحج بدر الدين سنة تسع وعشرين وأقام بحصن كيفا فشغل الناس بالعلم ، وحج جمال الدين سنة ثلاث وثلاثين وقدم القاهرة سنة أربع وثلاثين وأقام بها مدة وتوجه . وقد تقدم ذكره[٣] في سنة اثنتين وثمانيمائة[٤] » .

وقد كان ترجمه في وفيات سنة « ٨٠٢ » من الأنباء نقلا من تاريخ حلب الذي للقاضي علاء الدين علي بن خطيب الناصرية المشهور ، قال القاضي : « قدم علينا ولده جمال الدين فذكر أن والده مات سنة أربع وثمانيمائة والله أعلم » .

ومن هذا نعلم أن جمال الدين محمدا الحلوائي كان كسائر الشافعية صحيح العقيدة معروفا بالفضل والسيرة الحسنة ، والظاهر أن ورود لقبه « جلال الدين » في السلوك تصحيف « جمال الدين » .

ونحن نوافق المؤلف الفاضل في أن نبش قبور الموتى من غريب الأفعال عند العقلاء ، ولكنه كان مألوفا في ذلك الزمان وغيره .

---

(١) السلوك « مج ٢ ص ١٢ » . (٢) دول الاسلام « ج ٢ ص ١٦٤ » .
(٣) يعني ذكر عزالدين يوسف . (٤) أنباء الغمر بأبناء العمر ـ نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ١٦٠١ الورقة ١٩٥ . (٥) المرجع المذكور الورقة « ١٧٠ » .

وتكلم في ص ٤٥٤ على سلطة اليزيدية قال : « وفي الموصل ضربوا الرقم القياسي في الاستئثار بالقوة حيث تقلد أحد رجالهم وهو مرزا باشا الداسني البعشيقي منصب ولاية الموصل (١٠٦٠-١٠٦١) وتولى يزيدي بعشيقي الحكم في الموصل يدل على ما كان لهذه الطائفة من النفوذ والقوة في ذلك العهد » . وقال في الحاشية - يعني ولاية مرزا باشا الداسني - « هذا ما أيدته التقاويم الرسمية لولاية الموصل ، وفي الآثار الجلية لياسين العمري ما يخالف هذا ... » .

قلنا : وذكر العمري أيضا في الدر المكنون مثل ما ذكر في الآثار الجلية ، الا أنه قال بعد ذلك في حوادث سنة « ١٠٦٠ » ما هذا نصه : « وفيها ولى الموصل ميرزا باشا المعروف بالداسني على خلاف ما تقدم » . فلم يفت الرجل التنبه الى هذا الخلاف ، كما يفهم من هذا الاستدراك .

ثم نقل في ص ٤٥٨ من كتاب « غرائب الآثر » في حوادث سنة (١٢٠٥) نزول اسماعيل باشا من قلعة العمادية وتطوافه في مملكته وبلوغه قرى الشيخان ونزوله قصر تمر أغا واستدعاءه جولو بك بن بداغ بك وأمره بقتله ونصبه أميرا على الشيخان اسمه خنجر بك . وقال بعد ذلك : « وصاحب غرائب الآثر لم يدلنا على أسباب هذا القتل الذي أخذنا الآن نلمس درجة خطورته والآثر الذي أحدثه في المجتمع اليزيدي وكيف رضي تمر أغا بقتل زعيمه الديني في داره ... » .

قلنا : ينبغي أن نلتمس الأسباب فيما تقدم من الحوادث ، فان مؤلف غرائب الآثر قال في حوادث سنة « ١٢٠١ » : « وفيها حدثت بين والي العمادية اسماعيل باشا بن بهرام باشا واخوته فتن فطردهم وساروا الى زاخو وملكوها فبعث لحربهم أخاه الآخر علي بك فطردهم من زاخو وجرت لهم أمور يطول شرحها ولا فائدة لنا بذكرها » . فهو اذن قد طوى من الخبر شيئا ، نجده في الدر المكنون ، قال فيه : « وفيها حصلت فتنة بين والي العمادية اسماعيل باشا بن بهرام باشا وبين اخوته[1] فطردهم من العمادية فساروا الى زاخو وملكوها واجتمعت عليهم خلائق من الأكراد اليزيدية ، فاستولوا على أموال فتاح آغا ضابط زاخو ، فأرسل اسماعيل أخاه علي خان بك لحربهم وأمده بالعساكر والى الجزيرة محمد بك فهرب لطف الله بك وحاصر علي خان بك باقي اخوته ثم قبض منهم اثنين وأرسلهم الى العمادية ثم سار علي خان بك الى حرب اليزيدية فهرب أميرهم جولو ابن بداغ بك وقتل من اليزيدية جماعة » . فهذا هو السبب في قتل اسماعيل باشا لجولو

(١) هم طيفور بك وحسن بيك ولطف الله بيك وحاجي بيك .

اليزيدى . وقد استجاز المؤلف أن ينقل من التواريخ بالواسطة دون اشارة اليها ، وليس ذلك بالطريق العلمى فى التاريخ ، من ذلك ما ذكره فى ص ٤٩٠ نقلا من الدر المكنون فى حوادث سنة ١١٦٧ ، قال : « وهذا ما قاله مؤلف الدر المكنون عنها : ان والى بغداد سليمان باشا غزا جبل سنجار وحاصرهم واستولى على قراهم ثم نزلوا يطلبون منه الأمان وأقاموا هناك فأمر العسكر فحملوا عليهم من كل مكان وقتلوهم عن آخرهم وكانوا أكثر من ألف رجل ومعهم بعض النساء ، وقتل من العسكر مائتان » . ففى أى نسخة من الدر المكنون قرأ هذا ومن أيهن نقل ؟ ان الذى ورد فى الدر المكنون فى حوادث سنة ١١٦٦ لا سنة ١١٦٧ هذا نصه :

« وفيها خرج من بغداد واليها الوزير سليمان باشا وجمع العساكر وقدم الى الموصل فقابله بالاكرام والاقامات أمين بك بن الوزير حسين باشا الجليلى ثم توجه سليمان باشا الى جبل سنجار وحاصرهم ونهب بعض القرايا ونزل اليه نحو ألف رجل وامرأة فقتلهم عن آخرهم وأسر النساء والأطفال حتى بيعت الجارية بعشرين قرشا ،والغلام مثلها ، وعاد الى بغداد منصورا[1] » .

ولا يعنينا فى مثل هذا أن يكون الكتابان من تأليف رجل واحد .

ونختم نقدنا لهذا الكتاب النفيس فى موضوعه ومادته بأن مؤلفه ذكر أسماء مواضع بصورها العامية وان كانت تلك الصور قديمة بعض القدم ، كما جاء فى الصفحة الأولى « ثم جاء لالش فاهتزت به الأرض » . والصحيح « ليلش » باليـاء بعـد اللام ، قال عبدالحق البغدادى : « ليلش : قرية فى اللحف من أعمال الموصل شرقيها بها الشيخ عدى بن مسافر[2] » ، وقد نقل هذا من معجم البلدان وترك قول ياقوت « الشافعى شيخ الأكراد وامامهم وولده » ـ يعنى الشيخ عدى بن مسافر ، ومن هذا نعلم أن عديا كان شافعيا ، والشافعية مذهب عام للاكراد اذ ذاك . وجاء فى ص ٢١٥ حصن زائد والصحيح « حصن زياد » وهو حصن خرتبرت أى خربوط . وكل ما ذكرناه لا يعدو ـ فى الحقيقة ـ أن يكون من الأمور الطفيفة بالاضافة الى هذا التأليف الجسيم .

مصطفى جواد

(١) نسخة باريس فى الورقة « ٣٠٠ » .
(٢) مراصد الاطلاع على الأمكنة والبقاع .

الاختيار والجبر فى صدر الاسلام

Free will and Predestination in Early Islam

تاليف : « مونتكومرى وت » W. Montgomery Watt

من مطبوعات مكتبة « لوزاك » للمشرقيات بلندن سنة ١٩٤٨ . وهو كتاب قدمه « مونتكومرى وت » سنة ١٩٤٤ م الى جامعة أدنبرة ليظفر « بالدكتوراه » ، فمنحته الجامعة هذا اللقب ، ثم جعل محاضرا فى العلوم العربية فى الجامعة نفسها . وشاء المؤلف فنشر كتابه سنة ١٩٤٨م فى (١٨١) صفحة متوسطة الحجم ، منها (٥) صفحات للفهرست و (٣) صفحات للمراجع .

وقد حصر المؤلف بحثه فى المدة الواقعة بين سنة ٨٠ وسنة ٣٣٠ للهجرة[١] ، فتكلم على الرجال الذين كان لهم رأى خاص فى الاختيار أو الجبر ، وعلى المذاهب التى بحثت فى القضاء والقدر ، فابتدأ بالخوارج ، وعنى من آرائهم برأى ميمون وشعيب ، ثم انتقل الى تطور الفكرة المذهبية عند الخوارج وانتقالها من نزعة سياسية الى عقيدة دينية ، ثم تحدث عن فرق الخوارج التى ظهرت فيما بعد .

ثم انتقل الى غيلان ، فالمرجئة ، ثم الى القدرية فبحث فى تسميتها ، وشايع « نلينو » فى ذلك وتحدث عن قدمائهم . ثم انتقل الى معبد الجهنى ، ثم الى المعتزلة وفروعها فى بغداد والبصرة ، ثم تحدث عن أشهر رجال المعتزلة ، ثم انتقل الى مثبتة القدر فتحدث عن أبى حنيفة ، ثم انتقل الى الجهمية والجبر والمجبرة . ثم المثبتة ، ومنهم ضرار والنجار وبرغوث ، ثم تحدث عن هشام بن الحكم وخشيش والخراز . وأخيرا أداه المطاف الى البحث عن مذهب الأشعرى والأشعريين ، فخاتمة الكتاب .

وقد وضع فى نهاية الكتاب ثبتا بالمراجع التى اعتمد عليها فى تأليف كتابه ، وقسمها الى قسمين : مراجع عربية ومراجع استشراقية هى من وضع المستشرقين . وقد لاحظت أن المؤلف قد اعتمد على مراجع القسم الثانى أكثر مما اعتمد على مراجع القسم الأول ، ولاحظت أيضا أن المراجع العربية التى اعتمد عليها قليلة ، وقد يذكر المرجع مرتين أو ثلاث مرات : يذكره مرة ، ثم يذكر ترجمته ، ثم يذكر مختصره مثل كتاب « الفرق بين الفرق » للبغدادى و « الملل والنحل » للشهرستانى و « كتاب الابانة عن أصول الديانة » للأشعرى . وتبينت أنه لم يعتمد على المراجع التى ألفها أصحاب

(١) راجع ص ٢ .

المذاهب أنفسهم أو رجال من أتباعهم ، وهذا نقص فى الكتـــاب كبير ، اذ كيف يمكن تصوير صورة صادقة لمذهب من المذاهب بالاعتماد على كتب المخالفين له وحدها بغض النظر عن الكتب والوثائق التى ألفها رجاله ؟ فلم أجد من الكتب التى ألفها علماء المعتزلة غير كتاب واحد هو « كتاب الانتصار فى الرد على ابن الراوندى الملحد » للخياط ، وكنت آمل أن أرى تفسير « الكشاف » للزمخشرى فى جملة المراجع التى يعتمد عليهـا فى بحث آراء المعتزلة .

فأما الخوارج ، فلم أجد لهم مؤلفـــا بين المؤلفات التى رجع اليها المؤلف ، ومعنى هـذا أنه أخـذ ما قاله فى مذهب الخوارج من كتب المخـالفين لهم . وهـذا شىء غير صحيح .

وقد لاحظت أنه لم يتعرض لرأى الشـيعة فى الجبر والاختيار ، وأعتقـد أنه لم يعرف من أمرهم شيئا ؟ لأنه لم يذكر لهم مرجعا غير « كتاب فرق الشيعة » للنوبختى ، ولو تعرض لهم لوجد لمشكلة الجبر والاختيار مكانة كبيرة فى علم الكلام عندهم ، ولوجد أن المتأخرين منهم قد عالجوا الموضوع معالجة المعتزلة له ، وأن مؤلفاتهم فى هذا الباب تكاد تكون صورة طبق الأصل لمؤلفـات المعتزلة ، فى الاختيار وفى نظرية الأصلح واللطف ، وما الى ذلك من آراء مدونة فى كتب الكلام . ثم ان ما ذكره عن « هشام ابن الحكم » مناقض لما ورد فى كتب الشيعة من آرائه وأحاديثه . وهنالك رجال عـدة عاشوا فى أيام « هشام بن الحكم » وكانوا مثله فى الدرجة وفى الجدل مع رجال الفرق الأخرى ، لم يذكرهم المؤلف ولم يشـر اليهم ، وقـد كانت لهـم مجالس فى الجبر والاختيار .

وقد رأيت أيضا أن المؤلف اكتفى بسرد الآراء فى الجبر والاختيار ، ولم يبحث فى الأسباب التى أدت الى ظهور مشكلة الجبر والاختيار ، وأهمها عوامل سياسية كان لها أثر كبير فى ظهـور مذهب « القدرية » ، ولم يشـر الى موقف حكومـة الأمويين الرسمى من « القدر » ، ولا الى مقاومة رجال الحكومة للقدرية من حيث أن هذه الفكرة كانت لا تلائم نظرية الدولة التى أعلنت مرارا أن حكم « أمير المؤمنين » حكم أراده الله لخير الأمـة فلا يجـوز اعتـراض الناس عليـه . ولما كان الكتاب قـد قدمه مؤلفـه الى جامعـة كبيرة للظفـر بأكبر درجـة علميـة وهى « الدكتوراه » ، كنت آمل أن أرى رأى المؤلف واضحـا مسـتقيما فيهـا ، وأن أقـرأ نقـده ومحـاكمتـه ، وأطلـع على موازنتـه بين الآراء ، ولكننـى لم أجـد شيئا من هـذا ، بل وجـدت فى الحقيقة آراء الرجال مترجمة الى الانكليزية كما جاءت فى الكتب الاسلامية ، ومع

ذلك أرى أن المؤلف بذل جهدا كبيرا فى جمع هذه الآراء وعرضها ، لشرح مسألة خطيرة فى سيرة المسلمين الاجتماعية والدينية ، هى مسألة الجبر والاختيار .

بريطانية والدول العربية

Britain and The Arab States

تاليف : ستن ويليمس M. W. Seton - Williams

هذا الكتاب هو تذكرة فى الروابط البريطانية العربية منذ سنة ١٩٢٠ حتى ١٩٤٨م . يقع فى ٣٣٠ صفحة من الحجم الوسط . وقد طبع فى مطابع « Burleigh » بمدينة « بريستول » « Bristol » بانكلترة ، بعناية مكتبة « لوزاك » « Luzac » من مكتبات انكلترة المعروفة فى عالم المشرقيات .

ومؤلفة الكتاب سيدة استرالية مثقفة ثقافة تاريخية وسياسية ، درست التاريخ وعلم السياسة ، واشتغلت بالآثار ، وزارت بلاد العرب عدة مرات قبل الحرب العالمية الأخيرة مع البعثات الأثرية التى قامت بالتنقيب عن الحضارات القديمة فى بلاد الشرق الأدنى ، واختلطت بمختلف الطبقات فى البلاد العربية ، ثم اشتغلت فى أثناء الحرب العالمية الأخيرة بوزارة الاستعلامات البريطانية فى قسم الشرق الأوسط منها ، واتصلت ، بحكم وظيفتها ، بكثير من الرجال المسؤولين من الجانبين : العربى والبريطانى ، واطلعت على وثائق مهمة ساعدتها على وضع كتابها « بريطانية والدول العربية » .

تتألف فصول الكتاب من مقدمة عامة هى المدخل الى كل الفصول ، يليها فصل فى ظهور الفكرة القومية عند العرب ، ثم فصول فى العراق ، ومصر والسودان ، وسورية ، ولبنان ، وفلسطين ، وشرقى الأردن ، والمملكة العربية السعودية ، واليمن ، وأمارات الخليج الفارسى ، وختمت هذه الفصول بفصل فى الجامعة العربية .

وفى الكتاب ملحق خصص بالوثائق الرسمية ، وبالمعاهدات والاتفاقيات التى عقدت بين الدول العربية ، أو بين الحكومات العربية والدول الأجنبية ، وثبت بالمراجع التى اعتمدت عليها المؤلفة فى تأليف الكتاب ، وفهرست أبجدى بالأعلام التى ورد ذكرها فى المتن ، وأربع « خرائط » .

والكتاب مفيد ، ما فى ذلك شك . مفيد ؛ لأنه على صغر حجمه يحاول أن يقدم كل ما يمكن تقديمه للناس عن الروابط العربية الانكليزية ، ولا سيما أولئك الذين

يريدون الحصول على نظرة عامة على هذه العلاقات وموقف الحكومة البريطانية من العالم العربي وسياستها ازاء الامارات العربية والمحميات ، وقليل من الناس من يعرف عن هذه الأمور شيئا ، وفي هذا المختصر كفاية .

ومع ذلك يمكننا أن نذكر ملاحظات على هذا الكتاب . فمن ذلك أن المقدمة التي وضعت لتكون مدخلا له مقدمة موجزة ، لم تتعرض لكثير من الأمور المهمة التي كان يجب ذكرها . وقد بدأت بعمل التجار الانكليز في الشرق الأوسط في الأستانة وفي حلب ، وزحف « الشركة الشرقية » نحو الجنوب والجنوب الشرقي متبعة طريق الفرات وطريق دجلة الى الخليج ، باحثة عن طريق بري يوصلها الى الهند ، بعد أن أصبح البحر في حكم البرتغال . وقد استطاع أحد التجار ، وهو « رالف فيتش » « Ralph fitch » ، أن يصل الى « هرمز » « Ormus » ثم الى مدينة « كوا » « Goa » في الهند سنة « ١٥٨٣ ـ ١٥٩١ » . واستمرت هذه المقدمة حتى بلغت بالعالم العربي ما بعد الحرب العالمية الأخيرة . وقد كتبت المؤلفة كل هذه الحوادث ، وهي حوادث أربعة قرون في تسع صفحات متوسطة الحجم .

أما القسم الخاص بالمعاهدات والاتفاقيات فقد أهملت فيه وثائق مهمة لم يكن بد من اثباتها ، مثل معاهدة بريطانية والعراق لسنة ١٩٢٢م ، وتقرير اللورد ملنر عن مصر لسنة ١٩٢٠م ، واتفاقية النيل ١٩٤٦م ، والكتاب الأبيض للحكومة البريطانية عن فلسطين في مايس سنة ١٩٣٩م ، وقرار التقسيم الذي اتخذته هيئة الأمم المتحدة في نوفمبر سنة ١٩٤٧م ، واعلان الجنرال كاترو عهده باستقلال سورية ولبنان سنة ١٩٤١م ، ثم الرسائل التي تبادلها المستر « لتل تن » والجنرال ديغول .

وقد أوجزت في أمور كان لزاما عليها أن تفصل فيها القول ، فمن ذلك ايجازها في الاتجاهات والموجات الفكرية التي تعم الشرق الأدنى في الوقت الحاضر ، أو التي تحاول أن تجد لها مكانا فيه مثل حركة جمعية الاخوان المسلمين ؟ فقد أوجزت فيها كثيرا ، وجاء التعليق المذكور في الحاشية « رقم ٣٠٠ ص ٨٨ » مختصرا جدا ، وكذلك الآراء السياسية في البلاد العربية . وأهملت كثيرا من المسائل الحيوية التي لم يكن بد من التعرض لذكرها ، كالأحزاب السياسية في البلاد العربية بمبادئها وآرائها ووجهة نظرها بالنسبة للحكومة البريطانية السياسية ، ومشروع سورية الكبرى والمشروعات السياسية الأخرى .

وقد اقتصر الكتاب في الواقع على الأحداث السياسية فقط ، فعنى بتغير الوزارات

وتبدل الحكومات ، وبالمعاهدات والاتفاقيات ، ولذلك جاءت صفحاته مكتظة بالأرقام والأسماء . فأما النواحى الفكرية والاتجاهات الروحية والحزبية والمشكلات الاجتماعية والثقافية ، فقلما عنيت بها المؤلفة ، حتى المسائل التى لها مس بالسياسة البريطانية لا تجد لها موضعا فى الكتاب ، كالشيوعية مثلا ؟ فانها لم تتعرض قط لذكرها ، كما أنها لم تذكر الأحزاب أيضا ، فقد تعرضت مرارا عدة لذكر النحاس باشا مثلا ، ولكنها لم تبحث عن الوفد المصرى والأحزاب الأخرى مع ما لهذه الأحزاب من أثر فى علاقة بريطانية بالبلاد العربية ، ويصدق هذا القول على الوضع فى العراق وفى الأقطار العربية الأخرى .

والحق أننا اذا أردنا نقد الكتاب من هذه الناحية ، فاننا سنجد فيه نواقص كثيرة ، ولكننا اذا نظرنا اليه نظرتنا الى كتاب أخبارى موجز ، غايته سرد الحوادث والعلاقات البريطانية العراقية سردا زمنيا ، ألفيناه كتابا أقرب ما يكون الى كتب المذكرات ، فهو لذلك يفيد متتبع الوقائع والمراجع ، كما يفيد القارئ الذى يحب العرض السريع على طريقة « جرائد الأخبار المصورة » التى تعرض للأخبار فى دور السينما . ولكننا لا نجد فيه رأيا شخصيا لمؤلفة الكتاب ، ولا نقدا للاوضاع السياسية أو الاجتماعية فى بلاد الشرق الأدنى ، ولا أحكاما اجتهادية فى السياسة البريطانية وفى أعمال الرجال البريطانيين فى بلاد العرب ، ولا نستطيع أن نعرف منه مدى تأثير السياسة البريطانية فى أوضاع البلاد العربية وفى المشكلات القائمة . وهو بهذا يختلف عن الكتب التى ألفها مؤلفون بريطانيون أو أمريكيون فى هذا الباب . ولا بد من الاشارة أيضا الى أن الأعلام الواردة فى الكتاب غير مضبوطة وفيها كثير من التحريف .

سناد الاسلام

The Background of Islam

تاليف المستر فلبى

عدة أوراقه «١٥٢» ورقة ، وفهارسه فى « ٧ » ورقات . طبع بمطبعة « وايت هيد مورس » «Whitehead morris» بالاسكندرية بمصر ١٩٤٧ م .

تختلف طبيعة هذا الكتاب عن كتب « فلبى » الأخرى ، فهو كتاب تأريخى بحت ، تناول فيه تأريخ العرب قبل الاسلام من حيث هو الاساس الذى قامت عليه دعائم الاسلام ، فلم يضمنه شيئا من مخاطراته ورحلاته واستكشافاته ، وهو من أكثر المستعربين خبرة

بهذه الأمور ، وانما قصره على تأريخ العرب « القحطانيين » ، ولم يتعرض لتأريخ القسم الثاني من العرب الذين ظهر الاسلام في ديارهم ، وهم العرب العدنانيون ، الا بقدر ما لهم من اتصال بالقحطانيين ، مع ما لهؤلاء من أهمية في نشوء الاسلام .

وقد عرض للقحطانيين الذين عاشوا في الأقسام الجنوبية من جزيرة العرب أعني اليمن وحضرموت وعمان ، فبحث في الدول العربية القديمة ، وهي : معين ، وقتبان ، وسبأ ، وحضرموت ، وأوسان ، وفي الخلافات التي كانت بين « حاشد » و « بقيل » ومملكة « سبأ وذي ريدان » ، ثم حملة الرومان على اليمن بقيادة « أوليوس غاليوس » ، وبحث في غزو الأحباش الأول لليمن ، ثم ظهور مملكة « ذي نواس » التي اتبعت سياسة عدائية للنصارى فنكلت بالنجرانيين وبنصارى اليمن عامة ، واستشهد في ذلك عدد كبير من مؤمنيهم ، حتى أدى الامر الى تدخل الأحباش واحتلالهم اليمن مرة ثانية ، ثم اخراجهم منها واحتلال الفرس لليمن الى ظهور الاسلام الذي طهر بلاد العرب من رجس الأعداء .

ولم يتعرض للحكومات التي تأسست خارج اليمن ، تلك التي رجح النسابون نسبها الى قحطان ، مثل : مملكة الغساسنة ومملكة المناذرة ، ويثرب القاعدة الكبرى للقحطانية في الحجاز التي لها أهمية بالنسبة لظهور الاسلام . وأستطيع أن أقول : انه قصر بحثه على حضرموت واليمن . وقد دفعته الى ذلك النظرية التي تأثر بها ، وهي أن اليمن وما جاورها الموطن الأصلي للشعوب السامية ، منها خرجت تلك الشعوب وتوجهت الى الشمال ، وهي عكس النظرية الشائعة بين جماعة المستشرقين المتأثرين بنظرية التوراة .

فهذا الكتاب هو في الواقع تأريخ لليمن من أول مملكة عرفت فيها الى ظهور الاسلام ، ولذلك لا ينطبق عنوان الكتاب على ما جاء فيه . وقد كان على المؤلف أن يدرس نواحي أخرى أهم من هذه لمعرفة الأسس التي قام عليها الاسلام ، وكان حرى أن يدعو كتابه بتأريخ اليمن القديم ، أو « تاريخ القحطانيين في اليمن » ، أو ما شاكل ذلك من عناوين لها صلة مباشرة بمادة الكتاب وبنظرية المؤلف التي تحاول لفت النظر الى البلاد العربية الجنوبية على اعتبار أنها الموطن الأصلي للشعوب السامية .

ويدل الكتاب في الحقيقة على أن المؤلف قد بذل مجهودا كبيرا في استقصاء تأريخ اليمن القديم وفي تنسيق المعلومات المتناثرة التي لم تنظم تنظيما علميا حتى الآن ، وعلى رجوعه الى مراجع كثيرة تكونت منها مادة هذا الكتاب . ولكنني كنت أطمع أن أرى هذا المؤلف في صورة أخرى : كنت أطمع أن أراه كتابا حيا تجري في عروقه دماء غزيرة ، ويعبر عن خبرة « فلبي » الطويلة التي اكتسبها في بلاد العرب منذ الحرب العالمية الأولى

حتى الآن . كنت أطمع أن أرى تجارب فلبى ونتائج مباحثه وتحقيقاته التاريخية ماثلة فى هذا الكتاب ، وأن أقرأ تصحيحاته لغلطات المتقدمين ، وأن أجد شروحا جديدة لما جاء موجزا فى كتب الذين سبقوه ممن عنوا بتاريخ اليمن القديم ، فلقد اتسع له من الوقت وتسنى له من الأحوال ما لم يتسن لأحد غيره ، وزار أماكن تاريخية ذات قيمة يصعب على غيره من الأوربيين والشرقيين المعنيين بتاريخ العرب القديم الوصول اليها . ولكن طمعى هذا لم يتحقق اذ خرجت من الكتاب بخلاصة آراء المتقدمين ، لا بوجهات نظر « فلبى » الذى كنت أود أن أراه مجتهدا فى تاريخ العرب القديم ، له رأى خاص وثيق يمثل رأى المؤلف الذى عرف بصلابة رأيه فى أثناء اشتغاله فى الوظائف السياسية ، ينقل الى الباحثين الذين لم يسعدهم الحظ بزيارة تلك الأماكن رأى « فلبى » واستكشافاته الخاصة فى تلك الأرضين المجهولة ، فى قالب علمى جدى خارج عن أسلوب كتب السياحات .

وقد وردت فى الكتاب نظريات تكلم فيها المستعربون ، ولكنهم لم يتوصلوا الى نتائج ايجابية حتى الآن مثل نظرية الأبجدية وعلاقة الخط المسند بالأبجدية الفينيقية ، أو بالعكس . وكانت هذه المسألة لا تزال موضع جدل بين العلماء الذين يرون قدم دولة معين وقدم خطها تبعا لذلك، ثم ما يترتب على هذا من نظريات . وهنالك نظرية أخرى هى نظرية « ابراهيم » وموطن ابراهيم ونظرية العرب القدامى فيه ، وهل كان أهل اليمن يعدونه جدا لهم فى العصور السابقة للاسلام وفى العصور التى سبقت ميلاد المسيح ، وهل كان « ابراهيم » جدا للساميين ، وماذا كان يقال له عندهم ، وهو موضوع وضعت فيه مؤلفات **ومباحث ؟**

وقد لاحظت أن المؤلف مغرم بتحديد أيام الملوك ومدد حكمهم ، فوضع لهم وقتا زعم أنهم حكموا فيه ، وعصرا رأى أنهم عاشوا فيه . وهذا فى نظرى أمر غير ممكن فى الوقت الحاضر ؟ فان كان المتخصصون لم يتفقوا حتى الآن فى مبدأ قيام هذه الدول وسقوطها ، وفى عمر الكتابات وان كانت الكتابات أغفالا من التاريخ سوى عدد أرخ بتأريخ لا يزال فى حكم المجهول ، كأن يقال انه كتب فى شهر كذا من حكم الملك الفلانى ، وان كان الملك نفسه مجهولا عندنا ـ فكيف نستطيع أن نستخرج من ذلك تأريخا ولو تقريبيا للملوك ؟ ذلك فى نظرى أمر غير ممكن فى زمننا ، وقد يسوقنا الى غلطات شنيعة قد تولد أتعابا كثيرة عند اصلاحها فى المستقبل من الزمان .

ولاحظت أيضا أن المؤلف لم يذكر أرقام الكتابات ولا النصوص والنقوش التى أخذ منها مادته ، مع أن ذكر ذلك من الأمور الضرورية فى الكتب العلمية وللباحث الجاد الذى

يكتب كتبه لأصحاب العلم . ولم يشر أيضا الى المراجع التى أخذ منها ، بل اكتفى بالاشارة الى آراء جماعة من المستشرقين مثل « هومل » وغيره ، ولكن لهؤلاء كتبا ومباحث ومقالات فى مئات مجلات ، فمن أى كتاب أو بحث أو مقالة نقل (فلبى) هذا الرأى ؟ نضيف الى ذلك أن فى ذكر المصادر فائدة للقارىء أقلها ارشاده الى مراجع جديدة لم يكن يعرفها فتزيد معلوماته فى ذلك الموضوع .

ولم أجد فى الكتاب « خريطة » ولا صورة للاماكن الاثرية والآثار الفريدة التى لا تزال فى مواضعها ، ولو كان المؤلف انسانا آخر غير « فلبى » لما طالبته بخريطة أو صورة ، أما والمؤلف هو الرحالة المعروف الخبير بشؤون بلاد العرب ، وعنده ، ولا شك ، صور ومعرفة بجغرافية بلاد العرب الجنوبية لا توجد عند غيره ، فذلك يحملنا على ابداء هذه الملاحظة . ولعل عذر المؤلف فى ذلك أنه كتب كتابه هذا للخاصة ، وجعله هدية لعدد محدود من الناس ، فقد كتب فى صدر الكتاب أنه طبع بعدد محدود لم يتجاوز « ٥٠٠ » نسخة ، تحمل كل نسخة رقما ، وعليها امضاء المؤلف . ويظهر أنه اتبع فى ذلك خطة « نورنس » وطائفة من المؤلفين فى طبع كتب لهم بنسخ محدودة توزع بين طبقة مختارة من الناس .

ولا بد لى من الاشارة الى كتابة الأعلام فى الكتاب ، فان المؤلف لم يتقيد بالطريقة الاستشراقية فى تدوين الأعلام ، وتلك أمور حساسة بالنسبة للكتب العلمية ، فان تهاونا يسيرا قد يوقع القارىء فى هفوات من حيث كيفية النطق بأسماء الرجال أو القبائل أو الأماكن ، فلا بد من السير على الطريقة العلمية فى كتابة بعض الحروف مثل : ح وخ وص وط وظ وع وأ ، وكتابة المدة ، وقد تساهل المؤلف فى ذلك ، وسار على الطريقة المألوفة فى كتب السياحات أو الكتب التى لا تحمل الطابع العلمى فى التأليف .

ان هذه الملاحظات اليسيرة لن تؤثر حقا فى قيمة الكتاب ومجهود المؤلف القيم ، وأتعابه التى لا يقدرها الا من اشتغل بهذا القسم من التأريخ الذى لم تكتب فيه الا كتب قليلة . وأعترف بأنى قد استفدت من قراءة هذا الكتاب فوائد كثيرة .

جواد على